الباب الرابع

العصر التركي
بعد سقوط بغداد

كيف خلفت القاهرة بغداد وقرطبة؟

انتكث قتل العباسيين كما علمت في بغداد بعد عهد المتوكل لتنافس الفرس والترك، وتحارب الشيعة والسنة، وذهاب جلال الخلافة من النفوس، فاعتورتها الأرزاء واصطلحت عليها الأعداء، حتى قوض عرشها هلاكو سنة ٦٥٦ هـ. وتضعضع أمر الأمويين في الأندلس بتغلب البربر والموالي على ملكهم، وتقسيمه بينهم إلى دويلات صغيرة سهل على الفرنج ازدرادها قطعة قطعة، حتى ابتلعوها لقمة سائغة سنة ٨٩٨ هـ. وزالت دولة الفاطميين في مصر والشام فوقعتا في أيدي الأيوبيين، ثم صارتا إلى المماليك، وظلتا تحت سلطانهم حتى دخلتا في حكم الأتراك العثمانيين ٩٢٣ هـ. فأنت ترى أن العالم الإسلامي أتى عليه ستون وخمسمائة عام لم يكن للعرب فيها لواء معقود ولا ظل ممدود، بل أصبحت ديارهم وآثارهم نهبًا مقسمًا بين المغول والترك والفرس والجركس ثم الأسبان بعد قليل. وضع هؤلاء العجم وهم وحشيون أُمِّيون أيديهم على تراث العرب، فخربوا الديار وهتكوا الخدود، وفجعوا اللغة وآدابها وعلومها بتحريق المكاتب، وتعطيل المدارس وتقويض المراصد، وتقتيل العلماء. وناهيك بما فعله التتار ببخارى وبغداد، والصليبيون بالشام؛ والفرنج بالأندلس! فلو أن الزمان عَفى على اللغة العربية وألحقها بأخواتها السامية لما كان ذلك بِدْعًا من القول ولا حدَثًا في التاريخ ولكنها بقيت على مرغمة الحوادث لسانًا للدين والعلم، ولغة للحكومة والأمة، في بلاد المغرب ومصر والشام وبلاد العرب والجزيرة. ولولا نُعَرَةَ الترك وعصبية الفرس لكانت لغة المسلمين كافة.

والفضل في بقائها على فناء أهلها إنما كان للذكر الحكيم، وللأزهر الشريف، ولسلاطين مصر والشام من الأيوبيين والمماليك؛ فقد كانوا لها رِدءاً، ولأبنائها حرزاً، ولعلمائها وزراً، من غارة المغول حينما اكتسحوا خراسان وفارس والعراق؛ لأن الأيوبيين وإن كانوا أكراداً قد تكلموا بلغة العرب وتأدبوا بأدب العرب ونبغ فيهم الشاعر والعالم

والمؤرخ، كالملك الأفضل عليّ بن صلاح الدين المتوفى سنة ٦٠١ هـ وبهرام شاه صاحب بعلبك المتوفى سنة ٦٢٨، والملك المؤيد عماد الدين أبي الفداء المتوفى سنة ٧٢٢. وكذلك قل في المماليك فقد نبغ فيهم أحد السلاطين في الشعر وهو قانصوه الغوري المتوفى سنة ٩٢٢، لأنهم اتخذوا مصر وطنًا، والإسلام دينًا، والعربية لغة، وعضدوا العلماء وقربوا الأدباء، وشدوا أزر المعلمين والمؤلفين حتى نبغ في ظلهم أولئك الأعلام الذين جمعوا شتات اللغة والعلوم في المجموعات والموسوعات، وأقبلوا على علوم الأولين بالشرح والتلخيص، وهذبوا التاريخ ووضعوا فلسفته، وأقاموا للشعر وزنًا على قلة العارفين بفضله، والمستمعين إلى أهله، كابن منظور صاحب لسان العرب، واليروزآبادي صاحب القاموس، وابن خلدون منشىء المقدمة، والقلقشندي جامع صبح الأعشى.

والشاب الظريف وصفي الدين الحلي، وابن الوردي، وابن معتوق، والصفدي، ولكن هؤلاء أفراد تقسمتهم الأعصر فلم يستطيعوا إنهاض اللغة الثكلى وقد كَبتْ ببنيها الجدود العواثر، فامَّحت من الهند وخراسان وفارس والعراق وبلاد الروم والأندلس، وبقيت في مصر والشام وبلاد العرب بقاء المريض قد ونُقت عليه المنية ولم يبق فيه إلا الذِّماء.

ولقد كان أسلوبهم في النثر والشعر كأسلوب من تقدمهم من متأخري العصر العباسي، ولكنهم في الغالب لم يحسنوا التقليد، ولم يصيبوا الغرض؛ فتبذلوا في اللفظ، وتوغلوا في الصنعة، واستجازوا الخروج عن الإعراب والعبث بالمعنى إذا حال ذلك دون تورية أو سجعة أو جناس.

فلما أذال الله بني عثمان من المماليك أصبحت الخلافة عثمانية لا عباسية، وصارت عاصمة الإسلام القسطنطينية لا القاهرة، واللغة الرسمية التركية لا العربية ففشا في اللغة الدخيل، وزاحمتها العامية والتركية في الدواوين، وذهبت أساليبها من النظم والنثر، وتمكن الذل من النفوس فخمدت القرائح، ونضب معين العلم، واطمأنت الكتب في الخزائن فلم يزعجها إلا اشتعال الأرضية في صفحاتها، وضرب الجهل على أبصار الشرقيين فعمو، وفدحتهم أعباء الذل فرزحوا، وطال عليهم الأمد فغشاهم النعاس، وخيم عليهم الظلام، فلم يستيقظوا إلا بمدافع نابليون على أبواب القاهرة!

أعلام هذه المفازة

أغطشت سماء الأدب العربي في عصر المغول فعميت البصائر وضلت القرائح، ومشى الناس في دياجير الجهل حيارى لا يرون مظاهر الحياة حتى يضيئهم شارق في سماء مصر، أو بارق في جو الشام. وذلك لأنهما البلدان اللذان حفظا وجود اللغة، ورفعا سقوط الأدب، وجمعا شمل العلم، ولولاهما لانقطع ما بين الأدبين: القديم والحديث. وما كان

أروَحَ للنفس لو اتسع صدر هذا الكتاب لتراجم مواطنيَّ وجيرتي! ولكن البحث محدود والقلم موجز. ومهما يكن من شيء فلن يفوتنا ذكر أسمائهم مُعقْبَةً بأسماء معاصريهم في العراق والمغرب، اعترافًا لهذه النفوس الكبيرة المطمئِنَّة بالإحسان والفضل.

فمن النابغين في الشعر والأدب التَّلّعفَرى، ولد بالموصل سنة ٥٩٣ هـ واتصل بالملك الأشرف موسى، ثم هلك سنة ٦٧٥ هـ فريسة للقمار. والشاب الظريف، ولد بمصر وتوفي بها غض الإهاب سنة ٦٨٨ هـ والبوصيري صاحب البردة في مدح الرسول، ولد وتوفي بمصر سنة ٦٩٥ هـ، وابن نباتة المصري المتوفى سنة ٧٦٨ هـ وابن حجة الحموي زعيم الأدباء في عصره وصاحب خزانة الأدب، توفي سنة ٨٢٧ هـ، والقلقشندي المصري جامع صبح الأعشى المتوفى سنة ٨٢١ هـ، ثم صفي الدين الحلي المتوفى سنة ٧٥٠ هـ، و بن معتوق المتوفى سنة ١٠٨٧ هـ وشعرهم مثْقل بقيود الصنعة، محصور في دائرة التقليد، تعلب فيه مظاهر الضعف الخلقي كالجبن والملق والشكوى والإغراق والقِحة. إلا أن في بعضه أثارة من الحسن وبقية من البيان. والنابغون في اللغة وعلومها ابن مالك صاحب الألفية المتوفى سنة ٦٧٣، وجمال الدين بن منظور صاحب لسان العرب المتوفى سنة ٧١١ هـ وجمال الدين بن هشام صاحب المغني في النحو المتوفى سنة ٧٦١ هـ و لفيروزآبادي صاحب القاموس المتوفى سنة ٨١٧ هـ. وهؤلاء قد بسطوا قواعد اللغة و ستوعبوا مواردها في الكتب والمعجمات. ونوابغ التاريخ والجغرافية، ابن أبي أصيبعة صاحب عيون الأنبياء في طبقات الأطباء المتوفى سنة ٦٦٨ هـ. وابن خلكان صاحب وفيات الأعيان المتوفى سنة ٦٨١ هـ، وأبو الفداء المتوفى سنة ٧٣٢ هـ، وشمس الدين الذهبي صاحب تاريخ الإسلام المتوفى سنة ٧٤٨ هـ، والمقريزي صاحب كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، المتوفى سنة ٨٤٥ هـ، ثم ابن الطقطقي صاحب الفخري المتوفى سنة ٧٠١ هـ، وابن خلدون منشيء المقدمة المتوفى سنة ٨٠٨ هـ، ولسان الدين بن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦ هـ، والمقَّرِي صاحب نفح الطيب المتوفى سنة ١٠٤١ هـ، وطريقتهم في التاريخ أميل إلى استيعاب الحوادث، واستنباط العبر، والحكم بشيء من النقد، والخوض في بعض مسائل العلم والاجتماع. فكانوا بذلك خيراً من أسلافهم وأدنى منهم إلى منهج التاريخ القويم.

ونبغ من العلماء أصحاب الأسفار العامة: النويري صاحب نهاية الأرب في فنون الأدب المتوفى سنة ٧٣٢ هـ، وابن فضل الله العمري صاحب مسالك الأبصار المتوفى سنة ٧٤٨ هـ، وجلال الدين السيوطي صاحب المؤلفات الجليلة المتوفى سنة ٩١١ هـ، وكمال الدين الدميري صاحب حياة الحيوان المتوفى سنة ٨٠٨ هـ. وهم أصحاب الفضل جميعاً في ضم شتيت العلم والأدب في أسفار أشبه بدوائر المعارف الحديثة. فأنت ترى أن الله جل شأنه لم يشأ أن يصيب لغة كتابه بالعقم حين ألحت عليها أرزاء الدهر، وتخونتها أعراض

الهرم، حِفظاً لكتابه وصونًا لدينه، فكانت تنجب حينًا بعد حين عَلمًا من أولئك الأعلام يجدد منها ما اندرس، ويرأب فيها ما انصدع، وينقذها من يد البِلى والعفاء.

نجوم سماء كلما انقض كوكب ... بدأ كوكب تأوي إليه كواكبه

وها نحن أولاء نترجم بذوي الأثر البارز منهم واقفين الآن عند ذلك.

٧٦ ــ صفي الدين الحِلِّي ٦٧٧ ـ ٧٥٠ هـ

نشأته وحياته:

ولد صفي الدين أبو البركات عبد العزيز بن سرايا بالحِلَّة في العراق وبها نشأ وتأدب. ثم دعاه اضطراب السلم واختلال الأمن إلى المهاجرة إلى ماردين بالجزيرة ليلوذ بحمى الملوك من آل أرتق (٦٦٣ ـ ٧١٢)؛ فحلوا عقدة الخوف عن قلبه، ونزل منهم في جناب مَريع. فمدحهم بتسع وعشرين قصيدة كل منها تسعة وعشرون بيتاً، يبدأ كل بيت بحرف من حروف الهجاء ويختم به؛ وسماها (درر البحور في مدائح الملك المنصور) وهي المعروفة بالأرتقيات.

وفي سنة ٧٢٧ هـ ورد مصر فمثل بين يدي الملك الناصر بن قلاوون ومدحه فملأ يديه بجوائزه. وانقلب إلى ماردين ثم ذهب إلى بغداد فتوفي بها.

شعره:

لا خلاف في أن صفي الدين زعيم الشعراء في عصره. ولا تزال في شعره بَلَّةٌ من فصاحة اللفظ وبقية من رشاقة الأسلوب. امْتَنَّ في الصنعة ما شاء، وأجاد في القصائد الطوال والمقطوعات والموشحات والأزجال، وغالى في المجون والأحماض، ودخل في أحد عشر بابًا من أبواب الشعر وعقد عليها ديوانه. واخترع في النظم أنواعاً، منها الموشح المضمن كقوله في تضمين بائية أبي نواس:

وحق الهوى ما حُلت يوماً عن الهوى ... ولكن نجمي في المحبة قد هوى
ومَن كنت أرجو وصله قتلي نوى ... وأضنى فؤادي بالقطيعة والنوى
ليس في الهوى عجب ... إن أصابني نصب
(حامل الهوى تِعب ... يستخفه الطرب)

---

٧٦ ـ انظر ترجمته في: الدرر الكامنة: ٢/٣٦٩، وفوات الوفيات: ١/٢٧٩، وآداب اللغة: ٣/١٢٨، والنجوم الزاهرة: ١٠/٢٣٨، ونزهة الجليس: ٢/٢٠١، وشعراء الحلة: ٣/٢٧٠ ـ ٢٩١، والذريعة: ١/٣٣٧، وانظر الأعلام للزركلي: ٤/١٧ ـ ١٨.

نموذج من شعره:

قال في الحماسة:

سل الرماح العوالي عن معالينا ... وسائل البيض هل خاب الرجا فينا؟
وسائل العُربْ والأتراك ما فعلت ... في أرض قبر عُبَيْد الله أيدينا
لما سعينا فما رقت عزائمنا ... عما نروم ولا خابت مساعينا
يا يومَ وقعةِ زوراء العراق وقد ... دِنَّا الأعادي كما كانوا يَدينونا
بِضُمرٍّ ما ربطناها مسوَّمة ... إلا لنغزو بها من بات يغزونا
وفِتْية إن نقلْ أصغوا مسامعَهم ... لقولنا أو دعوناهم أجابونا
قوم إذا استخصموا كانوا فراعنة ... يومًا وإن حكّموا كانوا موازينا
تدرعوا العقل جِلْباباً فإن حميت ... نارُ الوغى خِلْتهم فيها مجانينا
إذا أدعوا جاءت الدنيا مصدّقة ... وإن دعوا قالت الأيام آمينا
إنا لقومٌ أبت أخلاقُنا شرقاً ... أن نبتدىء بالأذى من ليس يؤذينا
بيضٌ صنائعُنا، سود وقائعُنا، ... خُضر مرابعُنا، حمرٌ مواضينا
لا يظهر العجزُ منا دون نيل مُنى ... ولو رأينا المنايا في أمانينا

٧٧ ــ ابن منظور
١٢٣٢ ـ ١٣١١ م
٦٣٠ ـ ٧١٤ هـ

نشأته وحياته:

ولد جمال الدين محمد بن المكرَّم بالقاهرة في يوم الاثنين الثاني والعشرين من شهر المحرم سنة ٦٣٠ هـ في بيت من بيوت العلم، ودرس على شيوخ عصره كعبد الرحمن أبي الطفيل ومرتضى بن حاتم وابن المقبَّر حتى نال من العلوم والآداب قسطاً موفوراً جعله أهلاً للعمل في ديوان الإنشاء. والعمل في هذا الديوان يومئذ يقتضي مشاركة في علوم وفنون كثيرة فصلها صاحب صبح الأعشى ثم ولي قضاء طرابلس الغرب حيناً من الدهر وهو في أثناء ذلك لا يفتر عن الدرس والتأليف حتى انتقل إلى جوار ربه وله خمسمائة مجلد من تأليفه.

---

٧٧ ـ انظر ترجمته في: فوات الوفيات: ٢/٢٦٥، وبغية الوعاة: ص ١٠٦، وحسن المحاضرة: ١/٢١٩، والدرر الكامنة: ٤/٢٦٢، ونكت الهميان: ص ٢٧٥، ومفتاح السعادة: ١/١٠٦، وآداب اللغة: ٣/١٤١، وروضات الجنات: ص ٧١٢.

وكان ابن منظور صاحب جد وخلق وإرادة. وقد كان يتشبع في غير رفض كما يظهر من أسلوبه في لسان العرب كلما عرض ما يتصل بذلك. وقد توفي بالقاهرة.

مؤلفاته:

لم يكن ابن منظور من أُولي الاقتدار على الابتكار، وإنما كان كجلة العلماء في عصره أميل إلى الجمع أو الاختصار. وقد قال الصفدي صلاح الدين: «ما أعرف من كتب الأدب شيئًا إلا وقد اختصر جمال الدين بن المكرم». فمن مؤلفاته:

لسان العرب:

وهو ذلك المعجم الجامع الذي حوى بين دفتيه تهذيب الأزهري ومحكم ابن سيده وصحاح الجوهري وجمهرة ابن دريد ونهاية ابن الأثير. وقد رتبه المؤلف على أواخر الكلمات ونسقه تنسيقاً بديعاً لتسهل الاستفادة منه. وتَحَرَّى صحة النقل في مادة اللغة بالمحافظة على نصوص الرواة الأولين وتأييدها بالشواهد الصحيحة من القرآن والحديث والأمثال والشعر.

وقد ذكر مترجموه ومنهم الصفدي أن النسخة الأولى التي كتبها بخطه الجميل من لسان العرب كانت في ملك المقر الأشرف الكمالي ناظر ديوان الإنشاء بمصر، وهي مجزأة إلى سبعة وعشرين جزءاً. ولكنها طبعت في مصر في عشرين مجلداً سنة ١٣٠٠ هـ. ومنها (كتاب سرور النفس بمدارك الحواس الخمس) وموضوعه كل ما يقع عليه الحس كالليل والنهار وأوصافهما، والاصطباح ومدحه، والهلال وظهوره، وانبلاج الفجر، ورقة النسيم وقت السّحر، وتغريد الطيور على الشجر، والشمس والكواكب وآراء المنجمين وأهل الفلك الخ... وله غير ذلك طائفة من الكتب بين تهذيب واختصار كمختار الأغاني، ومختصر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ومختصر مفردات الحيوان للجاحظ، ومختصر اليتيمة للثعالبي، ولطائف الذخيرة لابن بسام.

ولقد كان يتعاطى الشعر ويجيده، ومن ذلك قوله:

ضع كتابي إذا أتاك على الأر ... ض وقلّبه في يديك لماما
فعلى ختمه وفي جانبيه ... قَبَلٌ قد وضعتهن تؤَاما
كان قصدي بها مباشرة الأر ... ض وكفيك بالتثامي إذا ما..

وقوله:

بالله إن جزت بوادي الأراك ... وقبلت أغصانه الخضر فاك
فابعث إلى المملوك من بعضه ... فإنني والله مالي (سواك)

٧٨ ــ أبو الفداء
١٢٧٣ ـ ١٣٣١ م
٦٧٢ ـ ٧٣٢ هـ

نشأته وحياته:

هو الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن علي الأيوبي صاحب حماة. ولُد بدمشق عَلَى مهد السراوة والفضل ورُبي في حجر الرخاء والنعمة، واستكمل حظه من العلوم وتفوق في التاريخ والهيئة. وكان بطلاً مقدامًا. خدم الملك الناصر ابن قلاوون وهو بالكرك وساعده على محاربة التتر فوعده بحماة ووفى بوعده، فأقامه عليها سلطانًا مطلق الإرادة حرّ التصرف، ولقبه بالملك المؤيد وأقدمه إلى مصر وأركبه بشعار السلطنة، فمشى الأمراء والكبراء في خدمته. وكان أبو الفداء يحمل إليه في كل عام أفخر الهدايا من الخيل والرقيق والجواهر. وعاش ما عاش نصيراً للضعفاء، ظهيراً للعلماء، ولوعا بالتأليف، حتى استخار له الله ما عنده.

مؤلفاته:

لأبي الفداء كتابان في التاريخ وتقويم البلدان هما مرجع العرب والفرنج في تحقيق هذين العلمين. فالأول كتاب (المختصر في أخبار البشر) وهو تاريخ عام للأمة العربية يبلغ بها إلى سنة ٧٢٩، وقد لخصه من عشرين كتابًا ونيفًا وحذا فيه حذو ابن الأثير في ترتيبه على السنين. وتحرى في نقل الحوادث الصدق والنقد. والآخر كتاب (تقويم البلدان) جمع فيه خلاصة ما كتب الأقدمون في الجغرافية والفلك، وضبط الأسماء، وحقق الأطوال والأعراض، وعنى على الخصوص بوصف مصر وسورية وبلاد العرب وفارس. وقد اهتم به الفرنج فترجموه واعتمدوا عليه في الوقوف على الجغرافية العربية.

٧٩ ــ ابن خلدون
١٣٣٢ ـ ١٤٠٦ م
٧٣٣ ـ ٨٠٨ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد المشهور بابن خلدون؛ ينتهي نسبه إلى وائل من

---

٧٨ ـ انظر ترجمته في: البداية والنهاية: ١٥٨/٤، وآداب اللغة: ١٨٧/٣، والنجوم الزاهرة: ٢٩٢/٩، وطبقات السبكي: ٨٤/٦، والفهرس التمهيدي: ص ٢٥٣، وفوات الوفيات: ١٦/١، وروض المناظر في حوادث سنة: ٧٣٢، والدرر الكامنة: ٣٧١/١.

٧٩ ـ انظر ترجمته في: نيل الابتهاج: ص ١٧، وتعريف الخلف: ٢١٣/٢، ونفح الطيب: ٤١٤/٤،

أفيال كندة. هاجر جده التاسع خلدون إلى الأندلس في أواخر القرن الثالث للهجرة وأقامت عشيرته في أشبيلية. ثم انتقلت إلى تونس حين الجلاء حيث وُلد هذا العالم الكبير سنة ٧٣٣ هـ. ودرج في مهد السراوة والعلم، وتأدب على أبيه ثم على غيره؛ فأتقن القرآن وضرب في كل العلوم بسهم. وبرع في الفقه والعربية وتبحر في التاريخ فاستجلى غوامضه واستقصى مباحثه، حتى أصبح فيه قريع دهره ونسيج وحده وطمحت نفسه في طفولته إلى خدمة السلاطين فاتصل بكثير من ملوك الأندلس والمغرب، وتقلد الكتابة والحجابة والقضاء؛ إلا أنه كان قليل المكث في كل منصب تقلده لعزة نفسه وصراحة قوله وكثرة حساده.

فلما كانت سنة ٧٦٤ وفد على الأندلس فاهتز له الغَنِيّ بالله صاحب غرناطة وبعث بخاصته لاستقباله وإكرام وفادته، وألزمه مجلسه وانفرد به دون وزيره. فحقد عليه هذا حقداً عرفه ابن خلدون، فغادر الملك والوزير وشأنهما وعاد إلى وطنه. ثم أخذ يجول في الأرض ويطوف في البلاد حتى بلغ مصر سنة ٧٨٤ هـ فقام بالتدريس في الجامع الأزهر، واتصل بالسلطان برقوق فعرف حقه وولاءه على تمنع منه قضاء المالكية، فأقام المعْدلة، وحكم المَنْصفة وضر على أيدي القضاة. فثار به ثائرهم واختلقوا عليه الأكاذيب ورفعو شكواهم إلى السلطان فلم يقم لكلامهم وزناً. ولكن ابن خلدون سئم هذه الحياة المرة، وضجر من تلك المكائد المستمرة. ووافق ذلك غرق أسرته وهي قادمة إليه من تونس، فنالت منه هذه المحنة، فاستعفى من القضاء وأدى فريضة الحج واعتزل في ضيعة له بالفيوم أقطعه السلطان إياها، وانصرف إلى التدريس والتأليف. ثم عاد ثانية إلى القضاء ومعالجة الحظوظ، فما زال يولى ويعزل، وينصر ويخذل، حتى وافاه أجله بمصر سنة ٨٠٨ هـ.

أخلاقه:

قال فيه لسان الدين، ابن الخطيب: كان رجلاً فاضلاً، حسن الخلق، جم الفضائل، ظاهر الحياء، وقور المجلس، خاص الزي، عزوفًا عن الضيم، صعب المقادة، خاطباً للحظ، متقدماً في فنون عقلية ونقلية، سديد البحث، كثير الحفظ، بارع الخط، مُغْرىً بالتجلة، حسن العشرة، إلى غير ذلك من الأوصاف التي تصدقها آراؤها وآثارها.

نثره وشعره:

ظهر ابن خلدون في عصر كسدت فيه العلوم ودرست الآداب وأزهقت الصناعة روح الكتابة، فهداه طبعه إلى الرجوع بالإنشاء إلى عهده والوقوف به عند حدّه. فرغب عن السجع وزهد في البديع وسار باللفظ وراء المعنى. وقد صرح بذلك في كلامه عن كتابته

وآداب زيدان: ٣/٢١٠، والضوء اللامع: ٤/١٤٥، ودائرة المعارف الإسلامية: ١/١٥٢، وانظر الأعلام للزركلي: ٣/٣٣٠، والعبر: ٧/٣٧٩.

لأبي سالم أحد ملوك الأندلس إذ يقول: «وكان أكثرها يصدر عني بالكلام المرسل بدون أن يشاركني أحد ممن ينتحل الكتابة في الأسجاع لضعف انتحالها، وخفاء المعاني فيها على أكثر الناس بخلاف المرسل فانفردت به يومئذ، وكان مستغرباً عند من هم من أهل هذه الصناعة. ثم أخذت نفسي بالشعر فانثالت عليَّ منه بحور، توسطت بين الإجادة والقصور». وحكمه على نفسه من الحق والصراحة بحيث لا يحتاج إلى تعليق ولا تعقيب.

كتابه في التاريخ:

نظر ابن خلدون في التاريخ فحرر مباحثه، وعلل حوادثه، ووضع كتابه المشهور (بالعبر وديوان المبتدأ والخبر) وهو ثلاثة كتب في سبعة مجلدات. يمتاز بما تضمنه من المقدمات الفلسفية في صدور الفصول عند الانتقال من دولة إلى دولة والصراحة في القول، والسداد في الرأي، والإنصاف في الحكم.

على أن فضل الرجل وشهرته إنما هما بالكتاب الأول من هذا التاريخ وهو المعروف بالمقدمة. لاشتماله على أبحاث مبتدعة منوعة في الاجتماع والاقتصاد وفلسفة التاريخ، واستنباط الأسباب والعلل مما طالعه أو شاهده في حياته العظيمة ورحلاته العديدة وتنقسم هذه المقدمة إلى ستة فصول: الأول في النشوء والارتقاء، والثاني في الاجتماع، والثالث في السياسة العملية، والرابع في الهندسة الحربية، والخامس في الاقتصاد السياسي، والسادس في تاريخ آداب اللغة العربية، فهي خزانة علم وأدب فضلاً عن أسلوبها الرشيق المتسق.

والراجح أن ابن خلدون أول إنسان استنبط فلسفة التاريخ وسماها طبيعة العمران في الخليفة. وقد فصلها في مقدمته واستشهد على كل ما كتب بالحوادث التاريخية الصحيحة، مما دل على سداد رأيه وصدق نظره وانفساح ذرعه في الاستنباط والتعليل. على أن العلماء أخذوا عليه إخلاله بالقواعد التي وضعها لكتابة التاريخ، ولم يسلم من المآخذ التي أخذها على سابقيه. وسبحان من تَفَرَّد بالكمال!

٨٠ ـ السيدة عائشة الباعونية
٠٠٠ ـ ١٥١٦ م
٠٠٠ ـ ٩٢٢ هـ

نشأتها وحياتها:

هي السيدة الفاضلة الناسكة عائشة بنت يوسف بن أحمد الباعوني، ولدت بالصالحية

---

٨٠ ـ انظر ترجمتها في: الدر المنثور: ص ٢٩٣، وشذرات الذهب: ١١١/٨، والكواكب السائرة: ٢٨٧/١، وانظر الأعلام للزركلي: ٢٤١/٣.

بدمشق في بيت عريق في العلم والورع، فقد كان أبوها وعمها وولدها وأخوها من نوابغ العلماء في الفقه والحديث والتصوف والتاريخ والأدب، فنهلت من حياضهم، وجنت من رياضهم. ثم تلقت الفقه والنحو والعروض على طائفة من شيوخ عصرها كجمال الحق والدين إسماعيل الحوارني، ومحيي الدين الأرموي ووردت بعد ذلك مصر فتلمذت للعلامة أبي العباس القسطلاني شارح البخاري. ثم عكفت على التدريس والتأليف فانتفع بعلمها وفضلها خلق كثير. ثم انتقلت إلى الدار الباقية بعد ما خلفت من الآثار كتاب الفتح المبين، في مدح الأمين، وهو شرح لقصيدتها التي نظمتها في علم البديع على منوال ابن حجة، وكتاب فيض الفضل، وهو ديوان شعر في المدائح النبوية، والمورد الأهنى في المولد الأسنى، وهو مولد النبي ﷺ اشتمل على رقائق النثر والنظم.

منزلتها في الشعر والكتابة:

يثير عاطفة الإعجاب في المرء أن يرى في هذا العصر المظلم امرأة كالباعونية تَبذُّ الرجال في العلم والأدب، ولا يعيبها أن تكلَف بالسجع، وتتكلف البديع وتُغْرَى باللفظ، وتقصر إلهامها على المدائح النبوية فإن المرء صنيع بيئته. والشعر الحق مرآة صاحبه وصورة قلبه. وقد علمنا كيف تشبث الشعراء في هذه العصور بالصناعة اللفظية، وانصرفوا إلى المعاني الدينية، فلا بدع إذا تخلقت هي بأخلاق عصرها، ونهجت سبيله في نثرها وشعرها.

نموذج من كلامها:

قالت في مقدمة شرح البديعية:

وبعد فهذه قصيدة صادرة عن ذات قناع، شاهدة بسلامة الطباع، منقحة بحسن البيان، مبنية على أساس تقوى من الله ورضوان، سافرة عن وجوه البديع، سامية بمدح الحبيب الشفيع، مطلقة من قيود تسمية الأنواع، مشرقة الطوالع في أفق الإبداع، موسومة بين القصائد النبويات، بمقتضى الإلهام الذي هو عمدة أهل الإشارات، بالفتح المبين، في مدح الأمين.

ومطلع هذه القصيدة:

في حسن مطلع أقمار بذي سَلم ... أصبحت في زُمرة العشاق كالعلم
أقول والدمع جارٍ جارحُ مقلي ... والجارُ جارَ بعدل فيه متّهم

ومنها في الجناس:

يا سعدُ إن أبصرت عيناك كاظمة ... وجئت سَلْعًا فسل عن أهلها القدُم
فَثَمَّ أقمار تمٍ طالعين على ... سويلع حيَّهم وانزل بحيَّهم

ومنها في الاستخدام:

واستوطنوا السر مني فهو موضعهم ... ولا أبوح به يوماً لغيرهم

ومنها في التفريق:

قالوا هو الغيث، قلت الغيث آونةَ ... يهمي وغيث نداه لا يزال همي

ومنها في حسن الختام:

مدحت مجدك والإخلاص ملتزمي ... فيه وحسن امتداحي فيك مختتمي

وقالت في جسر الشريعة لما بناه الظاهر برقوق:

بنى سلطاننا برقوق جسراً ... يأمر والأنام له مطيعه

مجاز في الحقيقة للبرايا ... وأمر بالمرور على الشريعه

ومن نظمها في وصف دمشق:

نزه الطرف في دمشق ففيها ... كل ما تشتهي وما تختار

هي في الأرض جنة فتأمّل ... كيف تجري من تحتها الأنهار

كم سما في ربوعها كل قصر ... أشرقت من وجوهه الأقمار

وتناغيك بينها صادحاتٌ ... خرست عند نطقها الأوتار

كلها روضة وماد زلال ... وقصور مَشِيدة وديار